تعريف الخطاب

ظهر تعريف الخطاب بداية في حقل الدراسات اللغوية، وظل في حالة تطوّر وتجدد بما ينسجم، وخصوصية المرحلة التي يمر بها، وهو بحسب المفهوم اللساني يمتد إلى النصوص المتعالية كالقرآن الكريم، والشعر الجاهلي.

وفي الدراسات الأجنبية يمتد إلى الإلياذة الأوديسة كأمثلة على خطابات متفردة بغض النظر عن نوع الخطاب. وقد بدأ هذا المصطلح بمعناه الدلالي لدى فرديناند دي سوسير في كتابه محاضرات في اللسانيات العامة، الذي اشتمل على مبادئ أساسية ساعدت على توضيح مفهوم الخطاب، وقد قدّمت له تعريفات متعددة باختلاف المنطلقات الأدبية واللسانية، ومن تعريفات الخطاب، أنه "اللغة في طور العمل أو اللسان الذي تنجزه ذات معينة كما أنه يتكون من متتالية تشكل مرسلة لها بداية ونهاية"، وقد لحق الخطاب بعلم اللسانيات والمجال اللساني على اعتبار أنه يتكون من وحدة لغوية أساسها سلسلة من الجمل تعبر عن أي رسالة أو مقول.

ويعتبر في في هذه الحالة مجموع قواعد متسلسلة وتتابع الجمل المكونة للمقول. كما يعرف الخطاب، بأنه الوسيط اللساني المستخدم لنقل مجموعة من الأحداث الواقعية والتخيلية التي سمّاها جينيت بالحكاية، وهو كما عرّفه جابر عصفور: "في كل اتجاهات فهمه، هو اللغة في حالة فعل، ومن حيث هي ممارسة تقتضي فاعلا، وتؤدي من الوظائف ما يقترن بتأكيد أدوار اجتماعية معرفية بعينها".

كما ورد في تعريف الخطاب، بأنه كلام أو حديث أو محادثة؛ وقُصِد بعد ذلك كل كلام رسمي، أو سرد، أو خطاب سياسي أو ديني؛ واستخدمه اللُّغويون على أنه وحدةٌ كلامية أكبر من الجملة، وكل هذا حسب المعنى اللغوي التقليدي للكلمة، إلا أنّ معناها الفلسفي الغربي أكثر دلالةً وعمقًا، خاصة بعد استخدامه من قِبل الفلاسفة الأوروبيين، مثل

الفيلسوف الفَرنسي ميشيل فوكو في ستينيات القرن العشرين الماضي، واللُّغوي البريطاني نورمان فيركلف.

ومصطلح الخطاب مأخوذ من المصطلح اللاتيني discourse المكون من course + dis، وتأتي فيها كلمة dis باللغة الإنجليزية إضافة مبدئية تدخل على بعض الكلمات لتُغيِّر أو تُحرِّف معناها للنقيض عادةً؛ فمثلًا، كلمة believe إيمان، وكلمة disbelieve كفر، وأيضًا كلمة infect يُعْدِي، وكلمة disinfect يُطَهِّر أو يزيل العدوى. أما كلمة courseفتَعني "مجرى" أو "اتجاه"، وعند إدخال كلمة –dis عليها تُصبح "تغيير مجرى" لا يكون الاتجاه فيه ثابتًا، بل يغدو شبكة من الاتجاهات التي تتداخل ببعضها البعض، هذا الإيحاء الفلسفي لن تجدَه ضمن معاني كلمة discourse اللُّغوية الشائعة؛ خاصة أن كثيرين سيعتبرون أن –dis ليست إضافة مبدئية في هذه الكلمة، وإنما من أصل الكلمة، كما أنّ المعنى الشائع للكلمة هو "كلام" أو "قول".

وبهذا يغدو الخطاب سيل من الأجندات "اللُّغوية" المتداخلة، والتي تغير مجراها على شكلِ شبكة لا بداية ولا نهاية لها، ولا يجري في خطّ مستقيم أبدا.

وينبغي لتمييز الخطاب الأدبي عن العام، تمييز الخطاب عن النص بوصف هذا الأخير إجراءا تصنيفيا، يميز النص الأدبي الذي يتمتع بـ"مدلول ثقافي فهو يدون ويحفظ كما يحرص على تعليمه ويحتاج عادة إلى مؤول أو مفسر.." عن النص غير الأدبي، ولكل مهنما كثافة ثقافية.

أما "تزيفتان تودوروف" فيؤكد أن الأدبية التي تتعدى حدود التصنيف، هي التي تسمح لنا بتصنيف النصوص إما في إطار أدبي أو إطار غير أدبي، فهي "الخاصة التي تسمح لنا بتمييز نص أدبي عن نص شعبي أو غير أدبي– هي محصلة قدرتنا البديهية على إدراك الفصائل النوعية"[1]، على اعتبار أن النص غير الأدبي يشترك مع النصوص

[1] تزفيطان تودوروف (مشترك): القصة الرواية المؤلف، ص57.

الأخرى من نوعه في سمات معينة مشتركة ويمكن تصنيفها، أما النص الأدبي فيؤكد "تودوروف" أنه يحطم القواعد النوعية ولا يمكن وضعه وضعا نهائيا في فصيلة نوعية متعددة.

يتضح من تصنيف "تودوروف" أنه تصنيف لنظرية الأدب ككل، لأنه يرى أن نظرية الأنواع الأدبية قد اندمجت في نظرية أوسع وهي نظرية الخطاب وعلم القص.

والأمر لم يقف عند هذا الحد من النظر فيما يميز بين أنواع الخطاب وإنما تعداه إلى تمييز النص عن اللانص (Non-texte)، ترى "جوليا كريستيفا" (J.Kristeva) أن النص يعمل على تفجير سطح اللغة... إنه ممارسة لغوية تميز النص عن اللانص (Non-texte) ، ليكون بذلك النص ممارسة دالة، تشير إلى اللذة التي تعيشها الذات المتكلمة، وهي تتشكل عن طريق الإجراء العملي، وذلك بالاتكاء على فعلي البناء والتفكيك.

والخطاب لا يقتصر على الكلام، وهذا ما أكد عليه علم العلامات بل يتعداه إلى أمور أخرى، فطن إليها الموروث العربي مثل : الرمز، فقد ورد في القرآن الكريم قوله تعالى: { قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّيَ آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ إِلاَّ رَمْزًا وَاذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالإِبْكَارِ} آل عمران/ 41. ومن عناصر الخطاب –أيضا– الإيحاء وقد ورد في قوله تعالى: { فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا} مريم/11.، وقد انتبه النقاد العرب القدامى إلى العناصر غير اللغوية في الخطاب، قال ابن يعيش (والأشياء الدالة خمسة: الخط، والعقد، والإشارة، والنصبة، واللفظ)، وقد قسم الجاحظ العلامات إلى علامات ملفوظة وأخرى غير ملفوظة، فليس (الكلام المنطوق هو الوسيلة الوحيدة التي يعبر بها الإنسان عن مشاعره وانفعالاته وعن حالته النفسية، بل إنه يعبر عن كل هذا–أيضا– بأوضاع جسمه وحركاته وإشاراته).

ومما تقدم يتضح أن الخطاب أما أن يكون لفظيا أداته اللغة، أو يكون خطابا علاماتيا يستعمل الإيحاءات والإشارات، ويبدو أن التأكيد كان منصبا على الخطاب اللفظي دون العلاماتي، على الرغم من أن الخطاب العلاماتي –في أحيان كثيرة– قد يكتنز بشحنة تبليغ كاملة.